

الواجب عدم ذكر الله للأولاد حتى إذا شبَّ يصبح صحيحاً حقيقياً وأوعى كروباً بأن يلتزم الآباء الامتناع عن الأسئلة الدينية ويعلمون أن كل ما يحجون الاطلاع عليه من مختلف المعتقدات وينبغي للآباء أن لا يحاذروا إذا سألمهم أبناءهم أسئلة لا يعرفون جوابها أن يقولوا لا ندري لأن نصف العلم لا أدرى.

التربية العقلية

اتفقت الآراء على أن الواجب تلقين الطفل مبادئ التربية الطبيعية بتقوية عضلاته والسهل على صحته ونشاطه وتهذيب أخلاقه وتربية عقله وإنارته، ووقع الاختلاف بين علماء التربية ففريق يقول أن تربية العقل عبارة عن إنارة الفكر وتحسين الذوق وتلقين الأدب وحب الجمال والتكامل، وآخر يقول بأن الواجب تهذيبه لعلم واسع ومعرفة صحيحة، ويقول بعضهم أن الواجب تنمية ذكائه، على أن الذكاء ليس مما ينال بالتعدد وتنشأ قواه بالأسباب بل يتكوّن من دون أن يبحث عنه ويقصد بالذات مباشرة فينشأ من أسباب عديدة ومن الانتخاب الطبيعي الذي يحيا به الأشخاص المستعدون ومن عمل كل فرد لما يضمن له بقاءه ويحسن عيشه ومن بواعث الحياة الاجتماعية التي تزايد اليوم بعد اليوم وتنوع أساليبها، فالولد يبحث من نفسه عما يحصنه من المقدمات لعقله فيعرف الأشياء بدون أن نحتاج إلى تعريفها له ويفكر ويتأمل من تلقاء نفسه بدون أن نضطر إلى أن نخشيه على ذلك ويشعر بنفسه في توخي الطرق إلى التخصّص من مآزق الحياة فراه إذا فرغ من درسه في المدرسة يعقد له صلوات عديدة مع غيره ويبحث في الشؤون بذاته ويهتم بما يجري حوالیه وينصت لأحاديث المسنين أكثر منه ويشاركهم في موضوعاتهم ويغتم كل فرصة ليعد عقله وفكره، وأحاديث الأسرات على المائدة وما يتبادل فيها من

الأفكار بين أهل البيت ويطرق فيها من مختلف الموضوعات في ساعات الفراغ أكثر فائدة لعقل الطفل من كل من يصرون عليه في المدرسة، فيما سعادة من يكبر في بيئة ذكية وينمو عقده فيها بذاته بمجرد اشتراكه بالحياة العامة وهذا ثبت معنا أن لا تربية تقوم مقام التربية التي يراها الطفل خارج المدرسة مما يفتح ذهنه ويعوده النظر والبحث والنشاط وينمي ذهنه بما يتوفر عليه من تمرينه المتواصل فيما يحتاج إليه في حياته ونعني به الذهن العنلي.

لا جرم أن تربية الأولاد في المدارس الداخلية لا تخلو من عيوب تعذر ملاقاتها فهي نافعة في تنظيم العمل ومعوذة للطفل على الصبر في مضار الدرس ولكنها لا تفيد إلا فيما ينتج جمع المعارف أما إذا كان يطلب منها أعداد ذكاء الأطفال ليحسن به الانتفاع فطلب باطل لما عرف من الفروق بين وجوه الأولاد الداخليين والأولاد الخارجيين في المدارس فحثة الولد الخارجي أكثر انتباهاً ونظرة أبعد مرمى وإذا قلّ عنه ودرسه بالنسبة للتلميذ الداخلي فهو أنجح في التمارين التي تتطلب ذهناً صافياً وعقلاً حاضراً حتى إذا أنجز دروسه زمان الدراسة ودخل معترك الحياة يجد نفسه أكثر ملاءمة معها فلا يشغل عليه الجهاد فيها لأنه كان أقرب إليها ولم ينفصل عنها كما انفصل تربيته الداخلي الذي يكون قضى وقته في حياة صناعية أو مصنعة منعزلاً عن الناس بعيداً عن اجتماع النهم إلا اجتماعه مع أولاد من سنه فكيف بعد هذا يهتم بحوادث الحياة الخارجية وبحركة الأفكار وبالوقائع العظيمة التي تجري في العالم وتضطّر العقول مهتماً بلغ من إهمالها أن تفكر وتدبر.

لا يكاد يصل إلى التلميذ الداخلي من حوادث الكون إلا المجهم الغامض وما من محدثه بما يجري في القرب والبعد وإني لأعرف تلميذاً داخلياً أخبر ذات يوم أن روسيا تحارب

اليابان منذ أشهر فلم يدهش لهذا الخبر وبذلك تبين لعلماء التربية أن حياة المدارس الداخلية بما فيها من عزلة العقل تحدر قواه وإذا قدر لها أن تشرق ففي ميدان ضيق جداً وأعني بها دروس المدرسة فقط ومن أجل هذا نقرأ في وجهه ضرباً من البلاء ومثال المنزل الذي لا يعمل والإهمال وقلة الاهتمام الذي يدخل في حياته نقصاً ومن الأسف أن ذلك أكثر فشواً في الطبقة العامين منه في الطبقة الخامين وفي المأخوذين بدروسهم منه في المتساهلين بها فهم الذين يبرون بسينات المدارس الداخلية، أما المضار الأدبية الناشئة من تربية الأولاد في المدارس الداخلية فمقررة عند علماء التربية فتربية الطفل في المدارس الخارجية هي التي يأخذ منها رأس ماله العقلي وذكاءه العيني الذي لا يتكون إلا بدروس الحياة نفسها وما عدا ذلك فباطل ومضر إذا لم يلاحظ ذلك أولاً فالنظر لا يفيد كالعمل بحال.

يحتاج الطفل إلى معارف حالية لا ليطبقها وينفع بتطبيقها بل ليتهدب بها فالجهل المطلق في الأمور يؤدي إلى البلاء لأن الذهن لا يشتغل في باطل لا طائل تحته فالواجب تغذيته إذا أريد تشغيته والذهن لا يتحرك إلا بحوادث تعرض له ومبادئ يتلقاها ولا يتيسر له اتساع العقل إذا لم يكن لديه شيء من المعارف يستعمله وكننا اتسع أمامه ما يترامي إلى سمعه تنمو قوى عقله، فالمعرفة حسنة في ذاتها وهي لا تنور إلى غنى هذه الصورة، نعم إن من الحوادث ما لا خطر له وهو من العقم على جانب ولا غناء فيها لسامعيها ولذلك ليس فيها كبير أمر لأعمال الفكر والحوادث الغريبة ذات المعنى المهمة في ذاتها والوقائع التي تبعث العقل على التفكير هي التي يستفيد منها العقل وتقع على الصور وقر الفكر إلى الحركة، وبديهي أن درس الحوادث التاريخية العظيمة هي أكثر إشغالاً للفكر من

الحوادث الصغيرة في التاريخ الأدبي ولا شبه بين المادة العقلية التي تستخرج من معرفة قاعدة نحوية وبين المادة التي تؤخذ بدراسة قانون الجاذبية، ولقد لاحظ كويو أن من المعارف ما هو باطل متعب للنهمن إذا دخلت إليه تحدث فيه فراغاً ولا تملأه بشيء.

فالواجب في مثل هذه الحال أن يترك الطفل منذ نعومة أظفاره يستمتع بشيء من إرادته ليكن نموها بالتدريج ويجب أن لا يلاحظ الدرس على الدوام ويفرض على الدارسين حتماً، فقد قيل أن لا شيء يعادل البحث الشخصي لنقوف على الأشياء، فالمرء يحفظ ما وقع نظره عليه أكثر من غيره وما نظر إليه بعناية لأن ما اكتشفه بذاته يستقر به غالباً فالتسوين على الملاحظة الشخصية هو من الأسف لما يصعب في المدارس، يجب أن تترك للتلميذ بعض حرية في اختيار ما توجه إليه رغبته من الدروس وأن يزداد من شرح الموضوعات التي تهمه أكثر من غيرها فقد جرت عادة المدارس أن تترك دراسة بعض المواد لاختيار التلميذ وهذا من شأن أن ينوع العاملين ويجعل حرية لنطالب ولا بأس بأن تجعل للتلميذ حصّة من اللعب في كل درس يراد منه العناية به فإن التربية العقلية لا تنتج النتائج الحسنة إلا إذا حثت نشاط العقل وجعلت منه له دافعاً وحشماً فقدت الإرادة يفقد الفكر لا محالة.

وترك التلميذ وما يختار من أنواع المطالعة من أعظم ما يثقف عقله فهو إذا أغرم بالمطالعة يتلقف بدون عناء معارف غريبة في تنوعها فإذا كلم غيره كمنة يلحش سامعه من الأمور التي يعرفها ويتساءل كيف تعلم ذلك إلا في كتاب وقع إليه عرضاً فصفحه مأخوذاً بما حواه واعياً ما أهمه من موضوعاته والقارئ في قراءته لا يتلقف حوادث بل أفكاراً فتكون له صلة فكرية مع أرباب العقول السامية ويسير على منحاهم ما وسعته

الحال بحيث يحاول إدراك كل ما يمر به فإن كل ما يمكن أن يعمل لتربية ذوق الطفل وتعويد المطالعة يساعده كل المساعدة على تقدمه العقلي ومن اقتصر على كتب الدراسة أقفر عقله وافقر ذهنه.

وكما أن تحصيل المعارف ضروري فمن اللازم أن يكون للسرء ذاكرة جيدة فمن يتعلم سريعاً وجيداً يعد ولا جرم من أهل السعادة وإن الرأي الشائع بأن جودة الذاكرة وجودة الذكاء لا يتفقان لأحد هو من الآراء التي لا سند لها يرجع فيه إلى البحث الأكيد لأن معظم نبغاء البشر كانت ذاكرهم نادرة فإذا كان في المكنة تحسين الذاكرة بتدريبها فالواجب أن لا يقصر فيه على أن في الذاكرة شيئاً لا يتميز ترقته بالتميز وأعني به قابلية الاستظهار وإذا صح بأنه من الممكن تسهّلها فلا مانع من إعطائهم دروساً يظهرونها ويسمعونها على أننا لا نرى التلامذة بعد دراسة سنين يستهون العلم أكثر من يوم بداءهم فإن حاسة التذكر بالأشياء هي من الاستعدادات الفطرية تولد مع المرء وتنمو بسرعة فائقة وتبلغ غايتها في سن الثانية عشرة ثم تنحط كلما تقدم المرء في السن فما النفع يا ترى من تمرين الذاكرة؟ إن بتدريبها يحمل إلى عقل الطفل معلومات مقررّة وتذكارات بنصّها يحتاج إليها ثم تنسي فيه حاسة الانتباه وهو جماع الربح الذي يستخرج منه تمرين الذاكرة هو أول جهاد عقلي وأول عمل ذهني يطلب من الطفل فهو يحثه ويحمله على أن يحصر أفكاره في موضوع معين وهذا يشبه كل الشبه ما ينبغي له بعد من أعمال الفكر متى طلب منه أن يفكر وحده مختاراً وقد يتعذر عليه الافتكار اختياراً بدون تمرين عقلي حازه بتدريب ذاكرته، فجميع التلميذ ما حفظ في صفه هو في محله فبالتمرين تقوى الذاكرة، والغاية أن نجعل من الولد إنساناً يفكر لا ببغاء يتكلم،

والمعرفة لا تغذي العقل إلى عنى شرط أن تتجانس أي أن تتحول ويستخدمها العقل في أساليب جديدة عقلية وإن من خواص تذكر النصوص أن تنقل إلينا الأفكار متوسعا فيها في صورة مقررة ومتى تأملنا من جديد في الأمور التي استظهرناها لا يسعنا إلا أن نكرر كلمة كلمة العبارة التي حفظناها فتدخل في تضاعف فكرنا من تلقاء ذاتها كأنها استشهاد بسيط ليست ذات قيمة عقلية ومتى امتلأ رأسنا من هذه الصور والعبارات التامة الصياغة هل نصوغ نحن أكثر منها؟ فإن ما يقتضي لنا لتأليف بعض الأفكار الخاصة هو أن نحيط علماً بالمسائل في ذاتها وأن نقبس ما فيها من الفكر بقطع النظر عن حرفيتها، ولا يتأتى إلا نقل النص ولكن إذا كان للنص أمور يعرفها يزيد عليها أمورا حديثة فإننا إذا حفظنا فكراً ونسبنا العبارة التي عبرت عنه بدأنا من تلك الحال في الإبداع بالفكر.

فالفكر مرن للغاية وهو العقل الفعال له في ذاته قوة التمدد فهي له سبيل التوسع إلى ما وراء الغاية وفي صور مختلفة فإذا انتقل من عقل إلى آخر يصبح كأنه فكر آخر جديد ويكون كأنه منك قائم وهو أبو عذره ولا يعبر عنه بأسنوب واحد، أما العبارة التي تستظهر فهي زهرة من مجموع أعشاب يابسة جافة متعددة والفكر الذي يبرز من الذهن كالبذرة التي تنمو ويكون منها زهرات حية فالواجب إذاً تقوية الطفل على حفظ الأشياء التي يكتسبها منها أكثر من الأسنوب الذي تعبر به، يعنونه المعاني أكثر من الألفاظ وهذا ما يجرون عليه في بعض الدروس مثل درس التاريخ مثلاً فإنه مطنّب من مطالب الذاكرة ولكنه يتنّب ذكرى الحوادث لا الصور التي عبر بها عنها، وفي هذا المعنى يليق توجيه الذاكرة وتربيتها ومن أجل التبارين أن يقرأ الطفل العبارة طويّنة كانت أو قصيرة بحسب تقلده العقلي وأن يسأل بعد ذلك عما تعنيه وهذا يتأكد فيما إذا قد فهم المعنى

لأول نظر وأنه انتبه إلى الأفكار الرئيسية وأنه حفظها متسلسلة ويبين له على هذا الوجه ما هو التعلم بفهم وذلك بدرسه مفكرات عقلية في موضوع يتنوه الإنسان وبهذا ترقى في التلميذ جودة الذاكرة التي لا تكتفي بجمع المسائل بل تميز بين ما يمكن أن ينفعها وتختار أجودها وتطرح العرض منها وتبقي على الجوهر، يجب أن يصل الفتى إلى أن يطالع كتاباً برمته ويستظهر منه الضروري مما يحوي.

ومما يحسن أيضاً تمرين الطفل بالأسئلة المتوالية على أن يغترف في الحال من ذهنه ما هو في حاجة ماسة إلى ذكره، ولا يكفي أن يكون العلم مكنوناً في ذهنه كالكتب المكونة في صندوق بل ينبغي أن يكون كل حين تحت الطلب وينتفع بها ويعثر عليها في الوقت المطلوب على أيسر وجه، فالتلميذ الذي لم ترب ذاكرته في هذا المعنى بتمارين خاصة لا يكون ما وعده من الأفكار إلا هاجعاً ناشئاً صعباً على الانبعاث لا توجيه عند الدعوة وتعصي عليه إبان الحاجة، ضع لتلميذ سؤالاً في المسائل التي تغلب عليه معرفتها يرتبك ولا يذكر الجواب، وليس هو في متسع من الوقت يستخرج فيه من أعماق قلبه ما سبق له وعيد، سله أن يورد لك بعض الأمثلة من أكثر المسائل تداولاً فلا تكاد تأخذ جواب مسألة أو اثنتين إلا بعد النيا والتي فعلبه غير حاضر معد، وهذا من العيوب المؤسفة جداً ولا سيما في الحياة العملية التي يجب للمرء حضور ذهن ليتخلص من المآزق وينجو من المضايق، فذاكرة الذكي والحالة هذه هي التي تورد في الوقت المطلوب ما يطلب إليها إirاده، لا جرم أن هذه الخاصية من الخواص التي تولد مع المرء ولكن يتيسر تسميتها بالترويض والتدريب.

ليست المخيلة من القوى التي تطلب لجمالها بل لها منفعة خصوصية على أننا يجب أن نكون على مثل اليقين بأننا لا تقوى بدون ذلك فبالخيلة يتيسر لنا أن يسبق تفكرنا أعمالنا وهذا نطلع على الاحتمالات المخلفة في المستقبل فهي ضرورية لإنسان ذكي، تجد المخيلة عند معظم الأولاد حادة للغاية فهم يحبون أن يمثلوا الأشياء في أذهانهم ويجعلونها مسلاة لهم بل طواً ولعباً فيخترعون من أنفسهم حوراً لينلذذوا بالنظر إليها في باطنهم وكل فرصة تمكنهم من استخدام هذه القوة وترويضها يفرحون بها ويسعون للقيام بها وهذا التسم من التربية العقلية سهل عليهم لأنها مستيلة لقلوبهم جامعة لأهواء نفوسهم وهذه الطريقة يعق المؤدب من حسن الإرادة من يؤدبه، لا بد للتصور بادئ بدء من مواد يقتنيها ومن المعلوم أنه مهما بلغت حاسة الاختراع فينا لا نستكن من الإبداع العقلي إلا بصور نتزعها من الحقيقة فكل ما فينا من إرادة يكفى بتحويله قليلاً وترتيبه عنى صور متنوعة فنحن لا نستطيع أن نتصور أمراً إذا لم يسبق لنا رؤية مثال منه، والأقوال مهما بلغ من سلطانها على نفوسنا لا تكون إلا إلى العجز في إدراكنا أمراً أيًا كانت منزلته إذا لم تذكرنا بشؤون من عالم الحقيقة يتأتى إدراكها مباشرة.

فالواجب إذا تزويد الطفل بتصورات عقلية واسعة المادة، أراه كثيراً من الأشياء تجنب بها دهشته وربما لا تجد منه ارتياحاً إلى ما أنت ملقنه إياه ولا اطمئناناً إلى ما تحسه له فهو يختار بذاته ما يهتم به، ضع أمام عينيه صوراً ورسوماً ولوحات واعمل على أن تكون كتب درسه طافحة بالرسوم وهكذا إذا تزود بصور شتى مصنوعة وتصورات وتذكارات يستطيع أن يعمل بذاته ويؤلف من عنده، أما نحن فلا يعيننا أمر خيالاته فهو حر فيها وهي من خصوصاته فينا نراه إذا ترك وشأنه ينسى العالم الحقيقي فيجعل له من ذاته عالماً

يجول فيه خياله ويرى مدحوشاً في مضيق الصور الباطنية، فتصوراته معها بلغت درجة غرابتها ومهما كانت طفلية فهذا ليس من شأننا معه.

بيد أنه لا يكفي المخيلة أن تعمل بل الواجب أيضاً أن تعلم على العمل وهنا تبدأ مهنة المربي إذ يقضى عليه أن يحول هذه الحركة في الفكر إلى أنحاء تزيد في ذكائها وبعد ذلك تدعو الضرورة إلى تمرين الذهن على أسلوب حسن فهو جزء من التربية التامة ومن الخطر أن لا يفكر فيه، وقد رأى بعض أرباب الأفكار القائلين بتلقين الحسرات (الخسوسات) بأن الأنسب تدريج عقل الطفل على النظر في الحوادث المقررة المقيسة الحقيقية أي تربيته تربية عنية صرفة وإلا فتضعف قواه الفكرة لقنة المران ويتكون عقله ناقصاً أو أن يعمل بنفسه ويضيع في الخيالات الغريبة لقنة الملاحظة، فالأحرى أشغال الذهن أكثر من كل شيء، ولا سبيل إلى التأثير في الذهن إلا بالكلام والمطالعة ومتى قرئت للطفل مثلاً قصة جميلة تأخذ في الحقيقة بمجامع قلبه ويستغويه وتضطره إلى تأليف بعض الصور.

وينبغي للمربي أن يلاحظ فيما إذا كان الطفل الذي يعلنه خاضعاً لما يحبه إلى نفسه ولا يعنى بما يلقيه عليه، ينبغي أن يحقق نظره منه الشهد الذي تقصه عليه فأنت لا تعطيه في الحقيقة إلا بعض الدلائل وبها يقضى عليه أن يكمل الصورة بأجمعها وبهذا يتهيأ أمامنا التمرين الأول الذي نركبه أو يعدنا إلى التركيب وهو يتطلب من الفكر شيئاً من البديهة والإرادة، إذا كانت المطالعة في موضوع يستدعي التصور والتفكر فيكون فيه تنشيط الخيال وتوجيهه نحو وجهة معينة حرة وبفضل الاتجاه الذي يوليه للعقل يدرك صوراً أجمل

وأكثر تنظيمًا مما يستطيع أن يخترعه بذاته وبفضل الحرية التي يطنقها له تكون مهته محبة إلى النفس خفيفة على الطبع.

هذا هو الربح الذي تستخرجه الخيلة من التعليم الأدبي وما لا يخلو من الفائدة أن نبين كيف يتأتى الانتفاع في هذا المعنى بالتعليم العلمية التي ترمي إلى تحصيل المعارف أكثر مما تقصد إلى قذيب العقل وهذه التعليم تشغل الخيلة ولكن لا مباشرة، فكل تعليم وصفي أو نقلي فيه بحث عن الجردات يضطر المرء إلى أن يتشبه، هكذا الحال في العلوم الطبيعية والجغرافية الوصفية والتاريخ، فقد أدرك المعنون أن هذه التعليم يجب أن تعرض أولاً في صورة مجردة بأن ترسم ما أمكن أمام عيون الطفل الأمور التي يكسونه عنها أو يصورونها له للوصول بعد إلى الجردات والعموميات، فإن قصة تاريخية يمكن أن تؤثر في الخيلة نفس التأثير الذي تؤثره رواية فاجعة أو قصة عادية إذا كانت مؤلفة بخيال واسع.

وبعد ذلك تأتي التمارين المؤلفة تأليفاً خاصاً أي التي يحاول التلميذ الاختراع فيها، إننا نريد أعداد مخيلات عامة مستعدة للتوليد لا أن نكتفي بأن نعيش أبداً من رأس مال الغير فالواجب إذاً تمرين الطفل على التأليف بنفسه، ويجب أن يعنى بأن تكون هذه التمرينات بالطبع متدرجة في الصعوبات مبتدئة بشرح مادة تعطى له إلى أن تبلغ حرية الاختراع، وما ينفع بيان مزية هذه التمرينات في التأليف من حيث التربية فقد أغرق من قالوا بإبطال الطريقة القديمة في التأليف واليوم اقتصروا من التمرين على التأليف على القدر الجزئي وقد ظهر من مناقشات حديثة أن بعض المربين شرعوا يدهشون من هذا القصور فقد كان من معائب الطريقة القديمة أنها تقود التلميذ خاصة إلى التوليد الأدبي ومن حزمها أنها تترك مجالاً واسعاً للتمرينات التي يستطيع المرء بها أن يبرهن على قدرته

العقلية فهي من ثم محرض قوي نافع للعقل وبها يجب علينا أن نفكر فيما أحرانا أن نغير وجهة الدروس لنجعل التلامذة أقل عناية بالأدبيات منهم بالعنيت على أن لا تضيق نطاق التمرين العقلي والتأليف والاختراع.

تجب العناية بالرسم لما فيه من المزايا في التربية فالرسم إذا أدركت حقيقته ووجهته وجهته نحو التربية العقلية يساعد كل المساعدة على ترقية المخيلة فهو يعلمنا النظر إلى الأشياء بذكاء ويقوي فينا حاسة التمثل والذاكرة المصورة والمخيلة المبدعة، وإذا أريد استخراج المنفعة الحقيقية المنتظرة من هذا التعليم فالواجب التمرين عليها، ولقد ضل من علماء التربية من جرد تعليم الرسم من كل نظر للطبيعة ومن الطبع على الاختراع فيما كانوا يرمون إلا إلى أعداد نساخين جيدين وأي فائدة لتعليم الرسم إذا لم تتحرك المخيلة. لتعليم اللغات مقام رفيع في طريقة تدريسنا وليس هذا بعجيب فإن فهم الإنسان للغة وإجادة الكتابة والتكلم بها هو من أثن المساعدات للذهن، ومعرفة اللغات الميتة يفتح أمامنا ميدان الفكر القديم كما أن معرفة اللغات الحديثة ضرورية لتتبع حركة الفكر الحديث، فبالإنسان يجد الفكر ما يعبر عنه فهو أداة من الألفاظ تتقدم وتتأخر على الدوام منها إلى الفكر ومنه إلى الألفاظ وتتطلب فكراً عاملاً أبداً، ولا عجب من ثم إذا صرف وقت طويل في التعليم المدرسي من حيث تنمية القوة الشفهية فإن هذا الاهتمام في محنه والواجب أن يعنى فقط بأن تكون هذه الدروس بحيث يستخرج منها الشبان أعظم المنافع العقلية.

وهنا نبدأ أولاً بالكلام على التمرين الذي يذهب العقل فيها من الألفاظ إلى الفكر فمن أول الدلائل وأدناها على بيان ذكاء الطفل أن يفهم ما نكنسه به وإذا كان لا يفهم معنى

الكلمات وكان من الصعب علينا إلا قليلاً أن نشرحها له فيجب عليه أن يحرزها وهو استدلال يستلزم منه أن يكون ذا ذكاء مدهش وبعد أن يتقدم فيه تعليم الإنسان يصبح معنى الكلمات المستعينة مألوفاً له ولا يتعب فهمها ذهنه بل تكون له مفهومة بذاتها بدون أدنى عمل ويبقى عليه دائماً ألفاظ جيدة وتراكيب جل غير عادية ليدرك معانيها وكلماتنا نظر درساً جديداً يجد أمامه مادة خاصة من الألفاظ تقف أمامه بعض الشيء، فنحن في مطالعاتنا نعرض كل ساعة على حمل لا تفهم لأول وهنة وبعض الأفكار لا يتأتى أن يعبر عنها بصورة واضحة وتعابير مستعينة، ومهما بلغ من استعمالنا اللغة والذكاء فلا بد في شرح صورها الشفاهية من درجة خفيفة لا يرقى إليها المرء إلا بمحاولة الفهم، وهذا الجهد نافع للنقل ولذلك كانت اللغة التي نريد اقتباسها زمان الدراسة غير مألوفاً لنا كل الألفة وكان درسها عبارة عن تمرين عقلي حقيقي.

وبهذا النظر لا نرى بداً من التوعية باستعمال الترجمة فإنها في الحقيقة إحدى الرياضات المدرسية الدالة على فرط الذكاء فيضطر الولد فيها أن يفرض عدة وجوه للمعاني الكثيرة التي يحصلها النص وتميز أوجه الشبه بينها ويستخرج من مجموع معنى الجملة المعنى الخاص بها الذي يجب إعطاؤه لكل كلمة فيتسرن على هذه الصورة ذكاؤه وعقله، ولا فرق بين أن يكون هذا التمرين بنغمة حية أو ميتة ويجب أن يلاحظ فقط أن الطريقة المتبعة في تعليم اللغات الحية مباشرة ترمي إلى ترك التمرين على الشرح والترجمة، وهذه الطريقة سامية من حيث العمل ومهيأة للتنفيذ بأسرع ما يمكن لاستعمال اللغة ولكنها قلما تمرن العقل فيجب أن يفكر المربي في التعليم بهذا التمرين الحسن أو بما يعادله على الأقل.

وإن استعمال الترجمة والشرح ليسكن حتى من لغة المرء الأصلية فإن معنى شرح عبارة هو حل معناها الحقيقي وترجمتها إلى لغة شائعة وبذلك يتعود المرء على ما هو لازم له من جودة النظر في الكائنات فنكم رأينا مناقشات قامت خاصة على ما أحدثه سوء التفاهم في اللغة فإننا ندخل في براهيننا تعابير مهمة أو مدرسية تكذب فكرنا أو تمنعنا من إيضاحها كل الإيضاح.

وهناك قمارين أخرى تقودنا من الفكر إلى الألفاظ فإننا نحاول أن نوجه للتعبير عن فكرنا لفظاً مستعدلاً ولطالما دهشت من الألفاظ الكثيرة التي يقتدر التلميذ الصغير على الإفصاح بما عن أفكاره بدورات تدل على حذق وبقليل من الألفاظ، حتى أن محاولتنا التعبير عن أفكارنا مما يفيدهم، ومن النادر ولا سيما عندما نفكر في مسائل قليلة الصعوبة أن نكون على استعداد مما نقوله قبل أن نبدأ في الكلام في الكلام فالفكر يبقى منتشراً مشوشاً وهو على سهولته في حيز القوة لا يخنو من إهمام إذا أريد إخراجنا إلى العمل ومن المحتمل كثيراً أنه يبقى في هذه الحالة المخصصة إذا لم نبحث عن طريقة لبيانه وتكمينه بالتعبير عنه فالفكر لا يتم إلا بالجنونة.

فالواجب والحالة هذه تمرين طلبة على التكنم وسؤالهم على الدوام وتمرينهم على الإفصاح عما يجول في خواطرهم ببيان رائق وهذا أحسن واسطة لتبنيه عقولهم حتى في خلال الدروس فإنهم إذا لم يكونوا إلا سامعين لما ينقى عندهم لا يلبثون أن يكونوا خامنين غير مهتمين بالدرس. وتيسير لنعلم إذا تكلموا أن يستدل على، هم في حالة يعملون معها أذهانهم ويسعملون قواهم العقلية فأنت ترى تلامذتنا الذين اعتادوا أن لا يفكروا إلا والقنم بأيديهم مرتبكين في الأحايين التي يحتاج فيها إلى حضور ذهن. وليس معنى هذا

أن يجعلوا خطباءً بل أن يمرنوا على التعبير عن أفكار حتى أمام الجمهور بدون ارتباك ولا غموض. فالتمرين اللفظي يضطر إلى التفكير بسرعة وإيجاد تعبير للتفكير الذي يعرض في الحال فهو يقوي الصفات العقلية التي تجعل المرء عاملاً.

التمارين المكتوبة ترقى الانتباه لتأليف الكلام في آونات الفراغ وتمكن صاحبها من العمل بعقده متتابعاً ومن التفكير طويلاً وتضطره إلى إيجاد بعض الأفكار في موضوع معين وتطهيرها والإبانة عنها أحسن إبانة في حين أن التمرين اللفظي يعلم استخدام الذكاء فالتمرين الكتابي هو العنقدة لترقية العقل في الأكثر والمرء يعلم التفكير إذا أخذ يكتب فالصور والحقائق تسير دائماً جنباً إلى جنب في الأشغال العقلية. إنشاء الكاتب وفكره متلازمان حتى أنك تشك في التأليف الرديء الإنشاء فيما إذا كان فيه خطأ في الفكر فإذا كانت الجملة رديئة التركيب شرشة الأساليب يستحيل أن يكون الفكر واضحاً على نسق متتابع. فلنعمل إذاً بكل ما فينا من قوة على تحسين إنشاء تلامذتنا فإننا بذلك نربي عقولهم. ومن أعظم الخدم التي لخدمهم بها أن نعلمهم لغة فصيحة ثابتة صريحة لأن مستقبلهم العقلي موقوف عليها. يقولون أن اللغة الفرنسية هذه الصفات إلى درجة أمازت بها وحقيق ما يقولون. إن الإدارة حسنة فعلينا أن نعلم الفتیان كيف يحسنون استعمالها. منذ بضع سنين أتى على اللغة الفرنسية بحران غريب أوشك أن يفسد اللغة وأعني به كثرة الكتابات والاستعارات والظاهر الآن أن هذا الوباء قد كاد يفسحل لولا أننا لم نبرح نعثر على بقايا من هذا المرض في لغة بعض معاصرينا من الكتاب لا يستقل بعندهم. أما نحن فندعو إلى الوضوح في العبارة وأنت ترى أي معنى يجب أن توجه إليه وجهة التمرين على الإنشاء للانتفاع منه انتفاعاً عقلياً فلا ينبغي النظر إلى الصور الجميلة

بل إلى الصفات العقلية. فنحن في مبحثنا هذا لا نرمي إلى أن نخرج أدباء بل إلى تربية ذهن الطفل بتدريبه على الإفصاح عن أفكاره بذكاء.

وها قد وصلنا إلى التبرين الذي يقصد به تربية الفكر فإنه لا يكفي حث الدماغ على العمل بكل الأسباب الممكنة فيمكن أن يفكر المرء كثيراً وتكون مادته فائضة أبداً ولا يكون إلا متوسط الذكاء وكل هذا العمل في الدماغ يجب أن يكون منظماً منسجماً متجهاً إلى وجهة واحدة ولكل جهاد فكري غاية والمطلوب أبداً إيجاد شيء من تقرير حقيقة أو البحث عن أحسن واسطة لتحقيق غاية فالواجب من ثم أن نؤمن عقناً على العمل بصورة نافعة.

يميل الطفل إلى التفكير هو في نفسه يعتنذ به فيفرض كيفما اتفق قضايا لا يتعب نفسه في مراقبتها ولا يهتم في الحقيقة للاجتهاد وبهذا يبقى كثير من الناس طول حياتهم في حكم الأطفال. وإن المرء ليعجب أن يرى أموراً تثبت بأقل نظر بمجرد المناقشة فيها والخوض في الأحاديث خوضاً عادياً فالواجب العمل على ما يخالف هذا الدليل منذ الصغر بالجري على نظام عقلي حسن.

وأن حكم الطفل على الأشياء ليصح خلال الحديث كنما خالف الواقع فمن خصائص عقده أن لا يمس الوقائع والحقيقة فالواجب إرجاعه إليها فكل فكر متلظ هو فكر متهور إذا وضع على محك النظر لا يلبث أن يكذب بالبحث والنقد فالواجب إذا الرجوع أبداً إلى الحقائق ويجب أن لا يفوتنا الاحتراس من أن الأوهام في الأحكام تصدر في العادة من نقص في الأخلاق لا من ضعف القوة المنطقية فين على الأمور التي لا يحق لهم أن يتوا فيها حكماً لا لأن العمل العقلي الذي يصدر به الحكم شيء الترتيب بل لقلة اهتمامهم

وخفة أحلامهم ونقص في استقامة عقولهم. وعلاج ذلك أن يشعر الطفل بما في كل قضية مهما كانت من الأمور الجدية أبداً وهناك تدخل التربية العقلية كما ينتظر في التربية الأخلاقية.

والواجب أيضاً تربية قوة التعقل فإن بعض قضايانا ليست مستخرجة من التجربة مباشرة بل هي مستندة إلى آراء أخذت من قضايا سابقة ففكر يولد لنا فكراً آخر ولتوسع في تأكيده وإثباته وما جودة الأحكام إلا أن يكون للمرء تسلسل في أفكاره لا يناقض أحدها الآخر بل أن يعضد أولها آخرها فيتألف منها مجموع متماسك الأجزاء. أنا نستطيع أن نعود أولادنا على صحة الحكم وذلك بإشراكهم معنا في الحوار والمناقشة معنيين لهم نقص تصورهم بأن نعيد أفكارهم إلى الطريق السوي متى حادت عنه ولذلك ألف مناسبة للإشراف على عقل الطفل في الحياة اليومية أو أثناء الدرس والتعليم.

وأنا إذا ساء بنا النظر إلى ترقية التربية العقلية أكثر مما هي الآن في أطفالنا ليجب علينا أن نجعل في المدارس تمرينات خاصة لتربية القوة العقلية ودروساً في المنطق العملي. وليس في طريقة تعيننا اليوم شيء مما يشبه هذا فإننا لا نعلم التلاميذ المنطق إلا في أواخر سني الطلب وبعض القواعد المنطقية الصحيحة التي يدرسونها على هذه الصورة هي سطحية مبتذلة قليلة التطبيق على العمل ويكاد يكون نفعها في التربية الفعلية قليلاً جداً.

لا جرم أن المربين يستندون على تلقين العنوم الجردة للطفل لترقية القوة المنطقية في عقده ولكن في الرياضيات والهندسة صورة قاسية من تقوية العقل وهذه الصورة فيها تجعل هذه الدروس قليلة النفع ولذا لا يسهل كثيراً الفرق بين تقوية العقل على طريقة جيدة أو رديئة فلاتقاء السفطات والأمور المخالفة للمنطق نحتاج إلى دقة وحداقة أكثر من

احتياجنا إلى ذهن يعي الهندسة. وكل منا يعرف أن المرء قد يكون مهندساً بارعاً ويكون حكمه بعيداً عن الصواب في جميع المواد الأخرى. وهل معنى هذا أننا ننسب للدرس العلوم المجردة قلة غناء في التربية عني حين نتوقع نحن منها نفعاً عقلياً كبيراً يخالف ما يراه بعضهم كل المخالفة.

فكل تمرين للنطفل نافع لما يتطلب فيه الجهد والتعلل. فأي مقاومة خاصة يقضي على دارس العلوم المجردة أن يتغلب عليها وأي حاسة تسترن بها؟ فإن هذه العلوم متى فهمها المتعلم وأدركها يقوم له البرهان عليها والصعوبة الأولى في الاهتداء إليها وفهمها وللتجاح فيها يجب أن يكون صاحبها أهلاً لأن يجعل لأفكاره المجردة كل التجربة قريبة من العقل ما أمكن ببيان الصلات بينها بمعنى أنه يتوصل إلى أن يلاحظ عليها ملاحظة حقيقة. يجب إدراك ما بين المسائل الكثيرة من الارتباط في النظريات التي قد تحدث ولا تسئل وفي مثل هذه المآزق يستدل على فلسفة العقل وقوتها. وأنت ترى أن الصعوبة في بلاغ الذهن إلى تلك الجردات لتحقيق هذه الأعمال العقلية ومن هنا نشأ الجهاد والتعب وفي هذا التمرين الحقيقي فائدة العلوم المجردة هو تمرين العقل على الجردات.

إن التعلم عني سهولة مآتاه في الجردات والترقي بالتمرين المتصل إلى مجردات أعنى منها هو أرقى أنواع التهذيب العقلي وبدون أفكار مجردة لا تتجاوز معدل الذكاء الحيواني ولا نفكر إلا بصورة خاصة كنحو ما يلزمنا في حياتنا اليومية. في حين إن جميع الأعمال العقلية ذات الشأن والتشابه المركبة والعموميات والتصورات الصعبة كلها بنت الجردات وربيبية النظر فمعنى إدراك الأفكار المجردة الاستعاضة عن الفكر الحقيقي المرتقي في تدوير الأشياء بفكر هو في حيز القوة يستعمل كما لو كان راقياً. فالعقل المبرن

الصريح المعتاد على الخكر في الأمور المجردة يشعر من نفسه هذه القوة ويقودها ويكتفي برسم الأعمال العقلية بدون أن يقوم بها بالفعل فينشأ من ذلك تخفيف عن الفكر يشبه ما حدث من نوعه عندما استعاض تصورنا عن الأشياء الحقيقية بصورة بسيطة من هذه الأمور. وبذلك تنمو قوة إدراكنا ونظرنا في العواقب نمواً مدهشاً ونعمل أعمالاً مختصرة بدون جهد أعمالاً يتجاوز ارتقاؤها طوقنا وذكاءنا. وعلى هذه الصورة يرتقي العلم بأن يدخل أفكاراً مجردة في أفكار مجردة أعنى منها ويوجد طرقاً أقرب إلى الجادة لحل المشاكل تتطلب حلاً ماهراً وبذلك يسو المرء إلى نظر أعنى في مجموع ما يعيه وإلى المدركات الواسعة فذكاء المرء يمكن أن يقاس بما فيه من قوة على اقتباس المجردات فأنا نرى الطريقة التي يفرض إتباعها واضحة أمامنا فيجب أن يسري تعيننا من الأعيان إلى المجردات لأن لننقل ميلاً إلى الجري على هذه الصورة بل لأن هذه هو الطريق الوحيد لبلوغ الارتقاء العقلي.

نعم إننا بذلك نكثر على العقول الفتية من الجهد وربما خيف من أن تتجاوز مثل هذه التبرينات القوة التي خصصت لها ولذا من اللازم أن يجري على سنة التدريج في إيراد الصعوبات.

فإن ذهن الطفل لا تتأني ارتقاؤه إلا بالتأني من سنة إلى أخرى باجتياز محطات تناسب تغيرات نموه الطبيعي ولا تتقاضى زيادة عنا تحمله منه. ولا يعدم أحد منا أمثلة على هذه التربية الخرقاء من تحميل الطفل الذكي فوق طاقته بجهل والديه أو مربييه فيدفعونه إلى ما يجب أن يحموه عنه ويعودونه الشدة في التربية حتى تهتك قواه فيقوى عقده قبل الأوان لكثرة ما يحملون إليه من الحركات ولكنه قد يصل ثم يقف هذا الارتقاء عن جريه

ويظل الطفل وسطاً في حياته. ألا فليستع من كل طريقة في التربية تكون إلى الشدة وتظهر منها نتائج خارقة للعادة لقاء عياء أكيد يصيب الطفل ولنعمل على العكس ما يضمن للطفل استمتاعه بقواده كما نريد على النحو المستقيم وأن نطلق سراحها خلال الدرس حرة في موازنتها الطبيعية والأدبية.

وبعد فإن الواجب تقوية الذكاء على صورة معتدلة ويمكن تقويته بالإزث لأن رقي الدماغ الذي يتمتع المرء بصحة الطبيعة من شأنه الانتقال بالوراثة. الذكاء أمر نافع وكل من يرى الارتقاء العقلي الذي بلغه البشر بالعمل فكان أثمن هبة حصل عليها وتحديثه نفسه أن يبذل كل مرتخص وغال لترقية الذكاء البشري درجة أخرى وما أظننا نغص إذا رأينا الجيل المقبل أرقى منا في منازعه بما نعى بع تلقينه أرقى تربية من تربيتنا نحن لا نغالي في آمالنا ونعرف ما يتطلبه الشؤ الاجتماعي لإدخال التكامل على عنصر من السذج البند وأن المرء بذاته لا يتحول على أيسر وجه وإن الارتقاء العقلي الذي يتأتى لنا أن نرجوه من التربية الحسنة هو محدود بالطبيعة. فالطفل يولد على شيء من الذكاء قل أو كثر بمعنى أنه يكون ذا مزاج معتاد في رقيه فترفع منزلته إلى قياس عقلي معتدل ومهما بلغ في تلقينه فلا يتيسر أن يتجاوز به هذا القياس. ولقد رأينا كثيراً من الفتيان والفتيات لم يربوا التربية الكافية فوقفوا في درجات عقلية يتأتى له تجاوزها وكان لهم استعداد طبيعي لم يحسن القانون على تربيتهم استخدامهم فأنست تربيتهم مقيدة بقيود تزيدهم بلاهة بدلاً من أن تزيدهم ذكاءً. فالذكاء كالصحة والقوة الطبيعية في الإنسان لا يكون من الإكثار من أسبابه سوى إهلاكها لا تماؤها والأخذ بيد كل إنسان إلى حيث تصل قواده هو الحسن والإحسان بعينه وأن ما نقصد إليه في هذا البحث الاقتصار إلى التربية

الضرورية حتى يرتقي العقل الحر ممتهماً بما فيه من كفاءة أوثية. نعم إن العقول مختلفة في مداركها فالكسلان الغليظ الذهن يظل أبداً كذلك والذكي بالفطرة يزداد ذكائه مضاعفاً بالعمل والتدريب والمتوسط متوسط والمستعد إلى التقدم تزيد قواه العقلية نشاطاً والتربية لا تزيل الفروق الإرثية بل تزيدها فالنفوس المستعدة تسفيد أكثر من غيرها من أسباب الترقى وتتقدم تقدماً محسوساً. والتكوين الشديد الذي تتطلبه التربية العقلية العالية لا يتأتى قبوله إلا لمن كانت عقولهم عاملة بطبيعتها أما غيرهم فلا استعداد لهم إليها. لئن كان تعديل أساليبنا في التعليم على النحو الذي أوردناه نافعاً للجميع فهو نافع خاصة لبعض الناس وذلك لأنه يزيد تنشيط بعض الأذكى المستعدين للنبوغ ولا ينبغي أن يساء من هذه النتيجة ونقتل منها فإن ذكاء الطبقة المختارة من الخاصة هو مولد النجاح الذي يستند منه الجنبوع (انتهى معرباً عن مبحث طويل في مجلة التربية الباريزية).

سكة الحجاج

قالت مجلة الطبيعة الفرنسية: كان الحجاج يسلكون إلى مكة طريق القوافل من جهات الساحل أو الداخلية ويحيى الفرس والهنود من الشرق ناعمين أيضاً طريق القوافل باجتياز صحارى بلاد العرب ويسر غيرهم وعددهم ليس بقليل عن طريق جدة على البحر الأحمر على مسافة ٧٥ كيلومتراً من مكة ويسر حجاج افريقية من طريق البر مجتازين شبه جزيرة سينا في حين أن غيرهم يأتون من البحر إلى جدة. ولهذا كان هذا الفرع من البلاد المهمة للغاية يجتمع فيه كل سنة عدد عظيم من الحجاج قادمين من مصر وافريقية الشمالية وبلاد الهند والعثمانية وروسيا الجنوبية. أما حجاج سورية فهم أيضاً كثير العدد يقصدون إلى مكة من طريق القوافل فيجتازون بلاد العرب من الشمال إلى